

رأيت زعيم العراق سنة العشرين

كنت يومذاك في الثامنة من العمر ، وكانت الثورة السورية سنة العشرين قد انتهت بالاحتلال الفرنسي كما انتهت الثورة العراقية بالاحتلال الانكليزي ، وكان من الطبيعي ان يطارد أبطال الثورتين فيناون عن أوطانهم ويخرجون من ميادين النضال بالسيف في عرينهم المغلوب الى ميادين النضال بالفكر والقلم ليدفعوا الغلبة عن هذا الامرين المغتصب .

وكان سماحة الزعيم الصدر بطل الثورة في وادي (دجلة) ممن كتب عليهم التشريد فاختاروا سورية مقراً لفتح الجبهة الفكرية من ذلك النضال الجديد الموصول باستقلال العراق .

وقد رأيت هناك وأنا في الثامنة من العمر يقود الفكر في جهاد ليست أشق منه قيادة (السيف) في جبهات الفراتين التي تنقل الصدر بين عجاجاتها الشاحبة المكفهرة على الشاطئين ، ينهد في الرعيل الاول من فرسان الثورة مستخفاً بالجو الانكليزي الذي كان اعنف

ما لقبته الثورة من الاسلحة الحديثة .

رأيت يومئذ فرأيت به زعيماً شاعراً بكل ما للزعامة من معاني
الشموخ، ثم لم يختلف في عيني من بعد، حين تقدمت بي السن . وقد
اختلف كثيرون كانوا كباراً فصغروا ، بل غما هو ايضاً كما غت
مداركي وزادته عقيدته تلك التي تنكربها لاحداث الاستعمار في
نظري شموخاً وارتفاعاً .

قلت لاني ادركت وانا في الثامنة من عمري زعامة « الصدر » .
وربما أثار هذا القول في النفوس تساؤلاً عن أساس هذا الادراك
أهو ادعاء مني لعبقرية لا تنتظر من ابناء هذا السن العاديين ؟ أم
هو تقرير للواقع في كل صبي صغير يكبر الرجل الكبير وهو يرى
الجاهلير تلتف حوله وتتمسح به وتنكب على يديه تقبلها وتحفل
به آناء الليل واطراف النهار لتنشيء فيه الشعر وتنشده ؟ أم هو ما
قالته العرب من قبل (كل فتاة بأبيها معجبة ؟) .

هذه أسئلة تجول في الذهن حين يدعي امرؤ منا انه شهد في
الثامنة من عمره حدثاً من احداث البطولة في مثل هذه الظروف
التي تكتنف ما ادعيت به ، وبطيب لي أن اجيب عن هذه الاسئلة
وأنا أطوف بهذه اللحظة بذهنية المحلل المجرد .

والواقع اني ادركت زعامة الصدر ادراكاً لا تنطبق عليه
تلك التفسيرات كلها . والامر في ادراكي هذا بسيط غاية البساطة ،
وهو اني افتحمت في تلك السن ثورة كالتجلا عنها « الصدر » من
العراق الى سوريا اذ كنت بين اثقال أبي وهو يخوض الثورة
السورية ويقودها في عاملة ثم يقر في دمشق منها في الصميم ثم يجلو

عنها حين جلا زعيم العرب المغفور له الملك فيصل الاول .
كنت معه في كل الاهوال من مراحل الثورة ، بل لقد لفحتني
المحنة فدفعني وبعض اخواني وأعمامي ورجال أبي الى الجيش
الفرنسي ، فكنا رهائن مرهلي اعناقنا سيف الجلاد وهو يدنا بالقتل
ان لم ندله على مكان « أبي » .

أقول ذلك لأصل منه الى نتيجة تنكشف عن الجواب الصحيح
لادراك ذاك ، وأنا في تلك السن الصغيرة . ومن الواضح ان صبياً
متوسط الذكاء لا يصعب عليه ان يسمو الى هذا الإدراك اذا انصهر
ذهنه بالنار التي فتحت ذهني بالاهوال ، ولا سيما اذا قدر له ان يبعث
في ملتقى امواج الوعي الثائر كما قدر لي .

ذلك وحده ما أعاني على فهم سماحة الصدر فهماً تجريبياً استفدته
من الشدائد ومشيت اليه على الشوك . ولا انسى حين سئلت عن
أبي وأنا على نطح الارهاب اني أجبت دون تلقين : « لا أعلم ، ولو
علمت لما قلت » .

وبذلك الفهم فقط استطعت ان ادرك شأن السيد الصدر في
البطولة ، وان ادرك شأنه في الزعامة اللتين كانتا في لبنان وسورية
مطافاً للجواهر .

وما دمت استعرض هذه الذكريات العزيزة المستوحاة من هذه
« الصورة » الكريمة أحب ان اكشف عن جانب مجهول من
جوانب سماحة الصدر ، وهو جانب قلبه ، ففي قرار هذا القلب ينبوع
انساني رقيق فوار تندى به شمائله الفرائد باكرم ما تندى به
شمائل زعيم استمد زعامته من « انسانيته » الشائرة لوطن داسته

أنانية الاستعمار ، واعتدت عليه نفعية الاستئثار ، وهي زعامة -
فوق ما حاز منها نفسه - حازتها اليه عوامل الوراثة البعيدة
فطبعته على هذا الفرار من النبل والشهامة والرحمة والسمو .

ولقد تعجب ان ترى الرجل الذي تحدث وقائع الثورة
العراقية عن قلب بين جنبيه مقدود من زبر الحديد ان ينكشف عن
قلب يجيش بهذه العواطف المتدافعة بغزارة كنت من غرقاها وانا
في الثامنة من العمر .

وأعجب ما يلوح لي الآن من تلك النقائص المتنافرة على تكوين
شخصية الصدر العظيمة انه كان يعطي لكل حال حقها منصرفاً عما
سواها كأنه لم يشغل بغيرها ، فاذا انصرف من ساعة جهاده ذاك
الشغل استقبل الوفود من زائرين دون ان تظهر عليه آثار الجهد
العنيف الذي يطبق عليه في مواقفه الرسمية . ثم اذا انصرف زائروه
خلا الى الصغار ممن هم بحكم بنيه في منتشاء بقلب الأب ، معطياً قلبه
حقه من التدفق والانطلاق لكانه يخلو إلا من الحنان والرفق والمطايبة
قد أنسى أشياء كثيرة كانت لها آثار من حقها ان تبقى في
حياتي ، ولكني لا أنسى تلك اللحظات الفساح التي رفت منه على
طفولتي تلك ، تمام روحانية كنت أجدها بين جناحيه العلويين وهو
يلقيها عليّ بحنان ورفق ودعة ، وحين كان يحاورني بلغته الهشة
الملائمة لعقلي في تلك السن ، فيدير بها الحديث معي آنذاك بنجاح يوازي
نجاحه حين يدير الحديث مع أقطاب السياسة في المشاكل العليا .

ذلك جانب غير مسجل من هبات الصدر ، وهو جانب
دو شعبتين ترى في احدهما الحنان يتلألأ في نفسه تلاًو المعين

المسلسل ، والحنان في الزعماء عنصر مصلح لا بد منه في رجال
الاصلاح الوطني لأزله مقر للشعور بالاماني الشعبية ووسيلة
للاحساس بها دون تأثر بالمصالح الاجنبية .

ونرى في الثانية شخصية مطمئنة يسيطر عليها عقل قوي جبار
يوزع حديثه باطمئنان وتوفر ، وفق الاحوال المختلفة الأهمية في
موضوعاتها المتفقة الدلالة على جوهر سمته وتوفره على ارضاء تلك
الاحوال بالحوار المستمد من بحته الدائم عن الحقيقة في كل امر .
ولم اكن عابثاً حين عرضت لحواره معي وانا في الثامنة من
العمر ، فالنجاح في (نفسية) الطفل المقابل بالنجاح في معرفة حل
المشاكل العليا امران متصلان اتصالاً وثيقاً في تكوين الفكرة
الصحيحة عن شخصية (الصدر) وهما متصلان اتصالاً وثيقاً كذلك
في شخصية (الزعيم) - كل زعيم - يربي امة ويقود مصلحة وطنية ،
لان الاطمئنان الفكري الذي يتبع له الانصراف الى هذا المظهر
والى ذاك كل على انفراد شرط في سلامة التفكير لمثل العمل
(الاصلاحى) الذي خلق السيد من أجله ، هذا فضلاً عن معرفة
(نفسية) الناشئ بصورة خاصة من اتصال بهذا العمل العظيم .

واحب - بعده - ان اشير إلى المرحلة التاريخية التي تذكرني
بها هذه الصورة المطبوعة في نفسي من يومي ذاك ، لتكون مصدراً
لما اتسع لي أن أقوله عن هذا الجانب من جوانب (الصدر) .

أما الذي كنت اراه وأحسه فلا يعدو ذلك الزحام الشديد
حول سماحة الرئيس في خطواته المحدودة . كان يستقبل كلما أقبل
على بلد في لبنان أو سورية استقبالا عظيماً يعبر عن جهاده وزعامته ،

وكان مجلسه يغص بالوفود والمنشدين ، وكان اذا خرج من مكان الى آخر تحتشد في طريقه الجماهير وتمشي بين يديه المهرجانات .

هذه هي الصورة التي كنت أشهدها ولو شئت لما شيتها بما يطيل على القارئ حديثاً لا يخلو طوله من لذة ، وأما ما لم أحط به في حدائني فقد كان هو مصدر الزحام الذي شهدته .

لبث سماحة الرئيس في منفاه ذاك سنة ، فما أدري تزيد يوماً أو تنقص يوماً . وكان سماحته أحد ستة عشر من رجال العراق انتخبوا للمطالبة باستقلال العراق والذيادة عنه ثم كان أحد اثنين ثانيهما المغفور له يوسف السويدي انتخبا من الستة عشر لقيادة الحركة الوطنية في الاوساط الدولية .

وقد أقام سماحته في سورية تلك الفترة فاتصل خلالها بعصبة الأمم وبالدول الكبرى معبراً عن آماني البلاد بقوة وصلابة لا هوادة فيها ، ثم عقد في مصر مؤتمر برئاسة الجنرال (اللبي) للمفاوضة مع سماحته وصحبه من الاحرار في مطالب العراق . وقد طلب الجنرال من سماحته الحضور ، غير انه ابى ذلك حرصاً على سلامة المطالبين ، واكتفى بالمفاوضة التحريرية ، وكانت الرسل تختلف بين العاصمتين دمشق وفيها مجاهد العراق ، والقاهرة وفيها هيئة المفاوضة الانكليزية ، وكان الرسل أولئك يحملون نتائج المفاوضات اخذاً ورداً بين الطرفين حتى حصل العراق على الوعد القاطع بالاستقلال .

وكان المغفور له الملك حسين مؤسس النهضة العربية عقد أثناء المفاوضات مؤتمراً عائلياً قاصراً على الامراء من اشباله الميامين

المفاوضة بشؤون البلاد العربية في تلك اللحظة . ودعي سماحة
(الصدر) الى حضور هذا المؤتمر ، غير ان الشأن في المفاوضات كان
من الخطورة في دمشق حيث منعه عن الشخوص الى الحجاز .
وتكملت مساعيه الجسام يومئذ بالظفر ... الظفر النسبي لتلك
الوثبة الواعية التي جرت وراءها الاستقلال الذي رمقته البلاد
العربية بعدئذ، وجعلته نموذجاً لمطالب جهادها المقدس .
وكان مما توصلت اليه حلول المشكلة التي تازمت بين العراق
والانكليز تتويج جلالة المغفور له الملك فيصل الاول ، وتقرر ان
يعود احرار العراق الى وطنهم ، وفي طليعهم سماحة الصدر بالملك
المتوج رحمه الله .

واعدت في (السويس) الباخرة التي تحمل الوفد الطافر ، فاذا
ركبوها مروا بجدة ليحملوا المليك العربي الضخم .
ثم انتصر (الثغر) في يوم صائف وهلمت آفاق العراق في
استقبال الزعيم في حاشية المليك ظافرة منتصرة

ومشى الركب من البصرة الى بغداد في الميادين الحمراء تباركه
ارواح الشهداء الكريمة ، وتصفق له مهرجانات الشعب المناضل .
وحين اغمض عيني ارى بغداد مصفورة الاكاليل في تحية بطلها
الذي حمسها وحمسته ومشى بين يديه تنادي باسمه وتهتف بزعامته
وها هي ذي تستقبله فتستقبل مجدها الذي تصلب وانتصر .

ولكن الأمر لا بطول فقد اصطدم بالمصالح الانكليزية ، مرة
اخرى ، وكانت هذه المصالح تصطنع (المجلس النيابي) لحمايتها
وتدب هنا وهناك بنشاط يعتمد على ركني السياسة الانكليزية

التقليدية في الفترات الصعاب ومهما (الرجاء والخوف) . غير ان السياسة الانكليزية لم تكن باصلب عود من سماحة الصدر ولا اوسخ عقيدة . وكان من الواضح بعد ان بسط الانكليز ظلمهم على العراق وتمكنوا من القبض على نواصيه واعرافه ان ينفي سماحة الصدر ، اما العودة الى السيف فقد كان البر بالدماء يمنعه منها إذ لم تكن التضحية يومئذ مرجوة لغير الحسارة .

وهكذا ازاحت المصالح الانكليزية من طريقها بالقوة وأبعدته عن عربنه ليخلو لها الجو ، وبعد ان (باضت وصفرت) عاد سماحته بعد سنة ليتبوأ مكانه من قيادة الجبهة الوطنية بمواهبه الملهمة وعقله النفاذ البعيد الغور . وكان في هذه المرحلة اقرب الى سياسة الايجاب منه الى سياسة السلب لانه رآها انجح في الوصول الى ما يريد لهذا الوطن العزيز من العزة والسياسة والاستقلال .

ولكنه في خلال الحكم الذي يسمى (وطنياً) بصنوف من العقوق وأشكال من الحرمان تدل على نجاح السياسة الانكليزية في افساد الاخلاق وتفكيك الاوصال وتسميم الافكار ، وهي وسائل الانكليز الى السيطرة والاستيلاء .

وكاد الامر يتسنى لهذه السياسة التي انشأت اعواناً لها ونجرتهم كما نشاء ، غير ان السيد ظل - على ما يبدو عليه من الاعتزال اخيراً - يجاهد بصمت غير متعرض لزحام الثناء مرضياً في ذلك ضميره وحب لوطنه .

ومرت خلال فترة الحكم الحديث انقلابات عدة لسنا الان في صدد تاريخها ، فهي معروفة كان محله منها محل الملاذ وذلك ما يدل

على رسوخ زعامته من جهة ، وعلى جهاده الصامت من جهة أخرى .
وكان آخر انقلاب انجى فيه الوطن من الخطر المحقق انقلابنا
الواعي الاخير الذي رأينا فيه الشعب برمه يختاره دون سواء
لقيادة هذه المرحلة الصعبة .

هذه صورة سريعة أوجتها إلى ذكرى نشأت في حدائتي ، وطافت
منذ نشأت حتى يومنا هذا بفنون من الحوادث وصور من الظروف
قضت على كثير من مشاهير الرجال الثقل فمسخ خلاها من مسخ
واندحر من اندحر وشاء من شاء إلا الصدر ، فقد ظل عملاقاً ظافراً
وضاحاً ، ولا اعرف لذلك سبباً غير انه (زعيم) يخفق صدره
بالحب الدائم لهذا البلد ، ويرتعش ضميره بخيره في مختلف الظروف .